لا أحد .. قصة

بقلم سليمان فياض

— ١ —

استيقظت متأخرا ، وجدت الضوء طاغيا على عتمة الغرفة يتسلل عبر خصاص النافذة الوحيدة والباب ، وعبر فراغ الردهة ذات العقود، المفتوحة على السماء . نظرت الى ساعة يدي . التاسعة صباحا . دهمني شعور بالتقصير ، الان تبدأ الحصة الاولى بالمدرسة ، أزحت الغطاء الصوفي عن جسدي جانبا . واذ كنت انهض متصالبا ، مرتكزا على جذعي ، تذكرت ان اليوم عيد . وأمس كانت وقفة العيد . وأمس عشت نفس اللحظة ، ولم أكن قد استويت جالسا بعد ، فتركت نفسي أهوي على سريري ، أعود الى استلقاءي مرة اخرى . اليوم أجازة . من حقي ان استقطر كل لحظات المتعة في هذا الصباح . من النادر أن أتذوق جمال هذه اللحظات الصباحية الفريدة ، مع التأمل والذكرى ، في غير ايام الاجازة ، في غير اوقات الصباح ، اعود كل يوم لهذا البيت مع الواحدة ظهرا ، لكن روحي تكون قد جفت ، وخيالاتي قد اختفت ، وأفكاري قد علاها الصدأ ، الى ان يأتي الصباح التالي . عندئذ يسحقني الشعور بالخواء ، والفراغ واليأس ، والنكد . وددت ، مع كل اللحظات في ساعات المساء النهارية والليلية ، ان اشرب حتى أسكر ، لكن الخمور لا تأتي الى هذه القرية النجدية ، الا في زجاجات عديدة . الزجاجات في صناديق ، الصناديق محكمة الاغلاق بالمسامير وشرائط الصفيح . وعلى الصناديق مكتوب في ناحية ((قرآن كريم)) ، وعلى الناحية الاخرى اسم الامير . ليس الامير ذا أهمية . ليس من الاسرة المالكة لهذه الديار . وليست هذه القرية المنفية ، غربا ، وراء صحراء النفوذ ، ورمالها السرابية ، سوى قرية ، على قلة القرى في صحراء نجد ، لا شأن لها ولا خطر . لكن الامير كان حارسا لرب هذه الاسرة، حين حمل اعباء الثورة بعد أبيه ، ضد اسرة ملكية سابقة . على فخذه، أثناء غزواته المنتصرة كان يضع رأسه بجوار سلاحه ، وينام آمنا ، ويظل هو مستيقظا . وكان ثمن هذه النومة امارته لهذه القرية . في الاردن يسمونه ((المتصرف)) ، او ((المختار)) — لست اذكر — في قرانا المصرية يسمونه ((العمدة)) في قرى امريكا يسمونه ((الشريف)) . افلام ((الكاوبوي)) تقول ذلك . وفي يديه تجتمع معا سلطة الدين والدنيا، لكنه لم يستخدم هذه السلطة ابدا . أهل القرية قبائل وبطون . نسوا، مع القمع والبطش ، وسلطات الاسر الحاكمة ، والاسر المالكة المتعاقبة، غرائزهم العدوانية : الاغارة ، والسلب ، والنهب ، والحرب ، والشعر ايضا ، وروايته . ومع ما نسوا ، نسوا تاريخ الحياة والانساب . وامتلأت قلوبهم حقدا مكبوتا . يحوكون مؤامرات صغيرة وتافهة. محورها المال ، والمناصب ذات الراتب المضمون التي لا أعباء فيها . ولا تكاليف . الحياة قبلية ، والمظهر عصري . الروح صحراوية لم تزل . والعيون ، كعيون القطط الاليفة ، مليئة بالطمع والجشع ، متلصصة ، راغبة ، متربصة ، لكنها خائفة ، ومذعورة . الاحياء الموتى . مثل أحياء أرنولد بنيت وأمواته . من المؤكد انهم اقل حياة واكثر موتا من احياء ارنولد بنيت وأمواته . ومثلهم أنا الان . الحي الميت . اهل الكهف هم . يسبقهم الزمان ، ويبقون في اماكنهم ، في جلودهم ، وعاداتهم ،وتقاليدهم والى كهفهم جئت بقدمي ، من كهف أقل قدما .

ابتسمت لنكتة قديمة ، نكتة مثقفة ، ذكرها لي من لا أدري في القاهرة . اشتاق آدم الى ان يرى أبناءه . توسل الى الرب كي يحقق له أمنيته . استجاب الرب الرحيم القلب . أنزله من السماء الى الارض في امريكا . قالوا له : نحن أبناؤك . قال لهم : لا . لستم أبنائي . حملوه في طائرة ، وطوفوا به في انحاء الارض بحثا عن أبنائه . كلما وصلوا به فوق بلد . نظروا قائلين : هؤلاء أبناؤك ؟.. لا ليسوا أبنائي. هؤلاء أبناؤك ؟.. لا . ليسوا أبنائي . فوق هذه البلاد ، قالوا : انظر هؤلاء أبناؤك . لم يبق سوى هؤلاء . صاح بفرح الاجداد الطفولي : نعم. هؤلاء أبنائي أنزلوني هنا . قالوا بدهشة مسحورة : وكيف عرفتهم ؟ قال: كما تركتهم وجدتهم . قلت لنفسي : أنا واحد من أبنائك ياآدم . وشعرت بالالم والانسحاق . بلذة ماسوشية مأساوية . في الاردن ، قتلوه ، أطلقوا عليه الرصاص.قالوا عنه : أطلق عليهم حراسه الرصاص بدورهم. أخذ منهم جريحان الى المستشفى . خيطا بطناهما . حين افاقا من تخدير البنج ، ثارا . غرسا الاصابع في جراحهما . ومزقا الخيوط . وتدلت أمعاؤهما . وظلا ينزفان حتى غابا عن الوعي . وماتا . لابد أنهما كانا يشعران بذات اللذة الماسوشية المأساوية . لذة الاستشهاد والضياع . حجر يلقى في بحيرة راكدة . يحدث دوامة صغيرة ، متثاقلة . ثم لاشيء . يعود العفن الطحلبي . قال سعد زغلول : لافائدة. محكوم على الجهد الفردي في هذا العصر بالموت . قلت ذلك لنفسي .

تاقت نفسي الى شرب الشاي . شعرت بفرح حين تذكرت ان رمضان قد انتهى بصيامه امس . مع آخر غروب . لكنني في هذا البيت لم اعرف الصوم . صائما كنت فقط ، في الشارع ، والمدرسة وبين الناس . والفضل كان للصابون الذي يمحو رائحة الطعام ، وللكولينوس الذي يزيل ، برائحة النعناع في الفم ، رائحة الدخان . لذلك كنت أعود الى البيت مسرعا ولا أغادره ، الا مع صباح اليوم التالي ، في آخر دقيقة ، حين يدق جرس مدرستي القريب . معي كان ابراهيم الفلسطيني الوسيم الحالم . اللاجيء المنسحق القلب . كنا نفطر معا ، ونتغدى معا ، في نهار رمضان . بدون صوت . كنا نذب حلقات الدخان بأكفنا ، بموجات صغيرة من الهواء ، في الهواء الساكن، حين يطرق الباب . وكان الزائر يتشمم الرائحة في الجو ، وفي أنفاسنا،

ويبلع ريقه بين الشك والتصديق . أكثر جمالا من بنات بلادي كان ابراهيم . رأيته في شرفة المدرسة ، ونسمة ضاحية تعبث بخصلة من شعره . ووجهه المستطيل الممتلىء ضاحك ، وعيناه العسليتان تبرقان. في معسكر لاجئين يقيم أهله . لهم يرسل مبلغا من المال . لم اره يرسله قط . لجارته كان يكتب رسائل طفلية عاشقة ، قرأتها ، ولم أر ردا عليها أبدا . كرهته من قلبي حين أخبرني انه أثناء احتلال غزه . في عدوان السويس ، كان يبيع البيض للعدو . آخرون كانوا يحاربون . اما هو . أصبح في عيني قبيحا وقميئا . ثم جاءت القشة التي قصمت ظهر البعير . ضبطوه وهو يدخن في دورة مياه المستوصف الذي يعمل ممرضا به ، في نهار رمضان ، ساقوه الى القاضي . فعنفه ووبخه . أنذره بالجلد والطرد . اعتذر عن نفسه بي . انا مدرس الدين واللغة . كان عليّ ان ادافع عن نفسي باحتجاج ما . طردته وقلبي يبكي من بيني. ما كنت ادعه يدفع ريالا من ايجار البيت السنوي . كان ذلك من حقي القانوني والمنطقي ، حقي غير الانساني ، ماكنت لادافع او احتج ، لولا انه كان يبيع البيض يوما للعدو . دمعت عيناه لانه احب صفائي . قال انني كالاخرين في هذه الارض . في كل ارض ، انني لايمكن ان اكون فنانا لانني فقدت انسانيتي . ركبني مع الحرج ، العناد للاهانة ، والنذير فاصررت على موقفي . حين غادرني بكيت بكل جوارحي ، حتى تمنيت الموت وهممت بالانتحار . لم اعرف ابدا . ماذا يدور في قلبه . ينبغي ان اكون فلسطينيا حتى اعرف مايمكن ان يحدثه كون الانسان بلا وطن . اليهودي يفرض على الفلسطيني ذات تجربته . يتخلص منها بتحميلها لغيره . لكي لاكون مهانا ينبغي ان يكون اخر هو المهان . (فيما بعد ، قلت لصديق يلومني ، لانني لاأكتب قصة عن فلسطين : لن يكتب هذه القصة سوى فلسطيني . كان ابراهيم معي في تلك اللحظة. كان بحيويته وعفويته ، مايزال أمام عيني . يقلب الارز في الغول في الطماطم) . بعد رحيله انضمت وثيقة وشاية بي ، الى وثيقة اخرى . في ذاكرة اهل القرية ، وبخاصة اميرها ، وقاضيها .

اول يوم لي في هذه البلدة . اول ليلة انامها من تعب السفر، قلقا ، ينبو بي المضجع. مع الفجر، دق الباب الخارجي لساحة البيت : الصلاة . الصلاة . آمر بالمعروف وناهد عن المنكر يدعوني للصلاة . تجاهلته ، وأغلقت أذني بساعدي ، وتناومت . لكنه عبر سور الساحة . ودق باب البيت مناديا : الصلاة ، الصلاة . نهضت لفوري غاضبا . لن يفرضوا عليّ هذه العادة برغمي ، سحبت سكينا حادا وخرجت اليه. فتحت الباب ، رافعا السكين في وجهه ، في غبش من ضوء الفجر ، تراجع قائلا : الصلاة يا مصري . الصلاة . قلت كاذبا ومتوعدا : اصلي في بيتي . اذهب ، لاتعد هنا والا قتلتك . دعاني القاضي اليه في المساء . قلت له انه ليس من حق رجله ، ان يدخل بيتا بغير ان يستأذن . « ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم ، حتى تستأذنوا » . قلت له ، ان صحتي لا تحتمل برد الصباح ، و « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » هكذا يقول الله . فماذا هو قائل . صمت غير راض ولا مقتنع . لا قبل لعلمه بعلمي . هكذا فكر . وهكذا ادركت . وظل بيننا حاجز من الجفوة كلما التقينا . اخر لقاء . في حفل مدرسي لقدوم رمضان . وقفت ألقي خطبة . بدأت : باسم الله . وباسم الشعب . صفق الحاضرون الا هو ، صاح من مكانه : باسم الله فقط . هذا شرك . انتظر الحاضرون ردا مني . لم يسعفني الموقف بجواب. فواصلت خطبتي . لكن احدا لم يعد يعيرني انتباها . في طريق عودتي فكرت انه كان ينبغي ان ارد عليه قائلا : ارادة الشعب من ارادة الله. لكن ذلك امر فات أوانه . وفكرت انه من العبث ان افعل اي شيء هنا. لقد جئت لاعمل ماأنال مقابله أجرا . لا أكثر ولا اقل ، وانني بعد ، هنا، حي كميت ، متواجد في مكان بلا زمان . واني كلا شيء . وفي البداية نولد ، وفي النهاية نموت ، ويختفي مع الزمان المكان .

بدا جسدي يتحرر تحت وطأة الانفعالات من خدر النوم . اصبحت اكثر قدرة على الحركة . غيبوبة النوم البئرية ، بسبب كسل الكبد ، وسوء التغذية ، تبتعد عني . رنوت الى سقف الغرفة . القماش الذي يغطي سقف الغرفة ، تدلى احد اطرافه ، كاشفا عما وراءه من فروع الاشجار الصحراوية ، وأغصانها المشدودة بالحبال . يتشبث به « بورص » رملي اللون . يجب ان أشد هذا الطرف بالمسامير حتى لايسقط عقرب فوق رأسي . أثناء النوم . عقارب هذه الصحراء كثيرة، ولا مصل في البلدة ضد سمومها. لا دواء سوى شق المكان ، ومص السم وبصقه ، على ان انهض ، لكن ، فيم العجلة ؟ صلى الناس صلاة العيد، وارتفعت الشمس ، كما يقولون ، في كبد السماء ، كما يقول اهل الشريعة ، قدر رمح ، وربما رمحين . أهل الشريعة يعلمون عن الاخرة أكثر مما يعلمون عن الدنيا ، الاخرة ، مستقبل ومجهول . والانسان يرنو اليه ويتشوف . والدنيا يعيشها السيد والعبد ، وليست سوى معبر، ودار للشقاء وللفناء ، يلد الناس فيها للدود ، ويبنون للخراب . في تفسير الكشاف حقائق عن الآخرة مقطوع بها . خرير نهر الكوثر في الجنة . يمكن ان اسمعه ، لو سددت اذني بكفي . الطنين الذي أسمعه عندئذ هو هذا الخرير . جواري الجنة حور عين لم يسمع بمثلهن بشر، ولم تر مثل جمالهن عين . من خلف سبعين ثوبا شفافا (كقمصان النوم) ترى اديمهن الوردي الابيض ، وترى الدماء وهي تجري في عروقهن الزرقاء . (أطباء العالم كله يدفعون اعمارهم ثمنا لهذه اللحظة) . وأحكام العبادات كلها قد حلت ومعروفة ، ولم يبق سوى معرفة الحكم الشرعي ، لما يمكن ان يحدث من مشاكل في العبادات . مثلا : ما الحكم فيمن حمل قربة فساء على ظهره . هل تجوز صلاته ؟ أحسست بمعدتي جائعة ، وأمعائي تتقلص رغبة في الخلاص مما بقي من طعام العشاء . لكنني ظللت باقيا في فراشي . فالزمن متوقف ومتخم . وسوف يبدد النور خارج الغرفة كل مايثقل روحي ، الجوع قارص ، ورغبتي في شاي الصباح تتزايد . لذلك نهضت من فراشي .

وانا افتح النافذة ، ليتدفق منها ضوء النهار ، ويبدد هواء الصحراء بخر أنفاسي في الغرفة ، تذكرته ، ذلك البدوي . رآني مرة، أتمشى قرب الفروب خارج البلدة ، في الصحراء الفسيحة . فنادى : ياولد ، ياولد . لم استجب في البداية للنداء . فلست صغيرا ، وانني لرجل . ولا بد ان هناك ولدا« صغيرا » يناديه . اخذ يقترب مني مناديا : ياولد . ياولد . تباطأت تماما ، متلفتا حولي ، علي ان أرى الولد الذي يناديه، واتيقن من انني غير المقصود في هذا الفضاء. لكنني لم اعثر على احد . توقفت مستديرا نحو صوته رأيته يشير الي قائلا: كم الساعة ياولد ؟ أجبته . وحين عدت حكيت لجاري ماكان من أمر البدوي . فضحك قائلا : هذا هو النداء هنا . فكل مولود .. ولد . ذات البدوي ، اعرف شكله . عيناه الضيقتان ، ولحيته الكثة ، وهذا الجرح الغائر في جبينه ، جاء اليّ يوما ، في هذا البيت ترك باب الساحة المغلق ، وتسلق سورها ، وجذب « سقاطة » باب البيت ، وعبر الردهة ، فباب الغرفة المفتوح . كان الكلوب « الاتريك » مضاء بطن، وينشر حوله صهدا ، يزيد من سخونة جو الغرفة ، في ليل الصحراء الخريفي الرطب ، وكنت مستلقيا على الحصير أسفل السرير احاول ان اقرأ ماقرأته من قبل . في يدي كتاب عن هيمنجواي ، (الذي أتمرد على كل تعاليمه هنا بحثا عن الصدق مثله) ، وبجواري الموقد البريموس، وبراد الشاي ، وعلبة كبريت . قال لي البدوي ، دون ان يحييني : ولد. كم راتبك ؟ بغت لدخوله المفاجيء . واتعبت لسؤاله عن راتبي .وتعمدت الا انظر الى حقيبتي الصغيرة تحت السرير . وخفت ان احتج على دخوله قلت لاستل سخيمته وحسده : تفضل . اجلس . جلس . صمت لحظة . ثم عاد يسأل : ولد . كم راتبك . أخبرته . صمت لحظة . ثم قال : ولد . شاهينا ام تقاهينا . قلت مبتسما : نشاهيك . ماعندي هيل . وبدأت اصنع له شايا . وفكرت ان همنجواي يسعده ان يلتقي بمثل هذا البدوي . لكنه كان سيكره المسخ الذي صار اليه ، المتشرد الذي اصبحه على صحرائه وارضه . قال وهو يشرب الشاي : تأتون هنا ، وتأخذون نقودنا . قلت : انني اعلم أبناءكم . قال : تعلمونهم

الكفر ، وعلوم الدنيا . قلت : الرسول كان معلما . قال محتجا : للاخرة ياولد . صببت له قدحا اخر . قال وهو يأتي على اخره . وهو ينهض : لولا انكم لاتجدون في بلدكم طعاما لما جئتم هنا. غلى دمي في عروقي . لكنه لم يكن يبغي اكثر مما فعل ، وادخل قدميه في حذائه ، وذهب كما جاء دون تحية . فيما يخصني لم يكذب فيما قاله . المجلة التي كنت اعمل بها أغلقت ابوابها . عجزت عن دفع ماكنت ادفعه كل شهر لابي واخوتي . قالوا لي : عل نفسك على الاقل . لقد تخرجت ، ولم تفطم بعد . لذلك جئت الى هنا . لم يكتب احد اخوتي لي . كتبت رسائل الى اصدقائي . انتظرت رسائلهم في الصحراء عبثا . شربت معهم ، وتحدثت . وأكلت وسهرت . وتصعلكت . وتشاكينا . وتعاهدنا ، ولعنا ما على الارض ، وأملنا معا في صنع جنة عدن . رسائلي الى خطيبتي وحدها ، كان يأتيني رد عليها . كلماتها على فمي قطرات ماء على فم ظامىء . يسير وحيدا في صحراء مجدبة ، تحت شمس محرقة . من أبي جاءتني رسالة يطلب نقودا . أحيل الى المعاش . ارسلت له ماطلب. وذكرته بان عليّ ان اعول نفسي ، وأبحث عن مستقبلي ، وذكرته بثورتهم عليّ . ولم ارسل اية نقود اخرى . أخي الذي يليني تخرج ، والتحق بعمل . يصغرني بخمسة اعوام . وعليهم ان يحتملوا كما احتمل . كان عليهم ان ينتظروا حتى اجد عملا آخر ، ولا آتي الى هنا . لكن هذا البدوي يجهل كل شيء وعما أناله من بلادهم . على غربتي لاأنال سوى نصف ماينال الموظف مثلي من مواطنيه . فانا أجنبي ، وشرعتهم انه لاينبغي لاجنبي ، ان يأخذ اكثر من نصف مايأخذه الوطني . قالت لي حبيبتي في آخر زيارة لها : لا تذهب ، ابق معي، السعادة ليست في المال . لم اقل لها انه لاحياة بلا مال . لا وجود أصلا بلا طعام . لم أقل لها ماحدث بيني وبين اهلي ، بعد ان اصبحت بلا عمل . أكدت لها ان من الضروري ان اسافر ، وانها ستكون معي في العام التالي . وبكت وهي تعانقني . من اجلك فقط ياحبيبتي جئت الى هذه الديار . لولاك وحدك لما جئت هنا . لاجل عينيك الجميلتين وقلبك المحب احتمل عذاب الوحدة ، والغربة الموحشة ، وفي الليل اعانق الوسادة الاخرى، اتخيل انها أنت ، وآخذ منك حبا وأعطيك . أفقد مع الوهم ماينبغي ان ادخره لك وحدك . لكنك لا تتخيلين كم هي قاسية ورهيبة هذه الوحدة في الغربة . في هذه الغرفة ، ثرت على نفسي ، وعلى المال ، مزقت رزمة من النقود نصفين وانا أبكي متشنجا . لكنني لم اجهز عليها ، حين اتخايلت لي حياتي بدونك . ازددت فقط بكاء لمحنتي . ولم يعرف احد قط في هذه البلدة انني اتجهم او احزن حين اكون وحدي . لايرون سوى الرجل العاقل المتزن ، الذي يعرف كيف يبتسم ، ويخفي جراحه في هذه الغرفة . ظللت أنزف وحدي ثلاثة ايام بلياليها ونهاراتها ، القلق ، والتوتر ، والطعام الجاف ، وسوء التغذية ، اصابتني بأمراض لاأعرفها ، تفجرت كلها في غيبة طبيب القرية الحضرمي ، في هذا النزيف المرعب من الدوسنتاريا والبواسير . كل عدة ساعات كنت أملأ علبة فارغة من معلبات قها . وأملأ الفضاء من حولي صراخا . ومع غيبة الطبيب يغلق المستوصف ابوابه . والقرية تبعد عن الرياض ، عن أقرب مدينة ، بمائتين وخمسين من الكيلو مترات . تذكرت وصفات قريتي البلدية . طلبت من تلاميذي ان يبحثوا لي عن سلامكه ، ونخوه هندي. فانطلقوا يبحثون بين اعشاب الصحراء ، حتى جاءوا بهما ، وطحنوهما، اتناولت السلامكة في يوم ومع منتصفه ابتلعت النخوة الهندي .واسترحت تلك الليلة، وبدأت اغضب على نفسي ، وأمزق ما ادخرته من مال لنعيش يوما معا ».(1)

أقعيت امام صنبور الماء ، وبدأت اغسل وجهي ، رائحة الحوض العطنة تزكم انفي . وطنين الذباب ، أسراب الذباب ، المتجمع على بقايا الشاي الحلوة في الخارج ، يسد اذني . ينساب الماء جاريا ، ليعبر الحائط ، عبر ثقب فيه ، الى الخارج ، حاملا معه بقايا الشاي المتخلف في البراد من الليل . مشطت شعري ، واستدرت باحثا عن رغيف ، في الصناديق الخشبية التي علقتها بالحائط ، لاخزن فيها زادي ومئونتي. ولا رغيف ، ولا معلبة واحدة . أشعلت الموقد النفطي . ووضعت عليه البراد لاصنع شايا والى ان يغلي الماء ، لابد ان احصل على خبز ، حتى لا أصاب بالامساك مرة اخرى . أطفأت الموقد حتى اعود ، وفي خاطري ان احدهم ربما يدعوني للافطار عنده ، وشرب الشاي ، في يوم عيد. عنده سأحصل على لحم ، واطعمة اخرى تحسن صنعها النساء : الارز، والعصيدة ، وما قد نسيت طعمه منذ شهور . عند باب غرفة الطعام ، كان شباك غرفته مغلقا ، وبابه مشبوكا بخيط سميك الى مسمار في السجاف . فتحت بابه . دائما افعل ذلك كل صباح . كانت الغرفة خالية ، لكن ذكرياته القليلة تملأ فراغها المكعب الاجوف . هنا كان يعيش ابراهيم . وفد رحل عن البلدة . طلب نقله منها ، الى مستوصف آخر، مهما كان نائيا . فنقلوه الى اطراف البلاد ، عند الربع الخالي .ارتديت حذائي وجلبابي ، ووضعت « الفطرة » على رأسي ، وطرحت طرفيها حول عنقي وراء ظهري ، وغادرت البيت ، متجها الى هدفين : الفرن ، والبدال . وغمرني نور الشمس ، وحرارتها القاسية ، مع الضحى .

— ٢ —

لم أنتبه في طريقي ، الى خلو الشوارع من الناس ، عند الفرن، وجدت بابه مغلقا . طرقت الباب مرة ، واثنتين ، وثلاثا ، ومرات عديدة، ولم يلب ندائي احد . جذبت سقاطة الباب ودخلت ، هذه اول مرة ، فكرت ان القاضي ربما يكون قد طرد العمال الحضارمة الذين يملكون هذا الفرن ، ويعملون فيه . لكن ذلك لو حدث . لكان ذلك معناه ، جوع الكثيرين في هذه القرية . يانف اهل البلاد كأجدادهم الجاهليين الاقدمين من العمل اليدوي ، ومن الحرف ، مهما كان فقرهم وحاجتهم. ولا بد انيأتي عمال آخرون من اليمنيين ، او الحضارمة ،او الفلسطينيين قبل ان يجرؤالقاضي على طردهم . حتى لو ارتكبوا الفاحشة مع ولده نفسه . وغادرت الفرن الى البدال ، لاسأله عن السبب في غيبتهم ، وتوقف الفرن عن العمل ، ثم .. كيف أحصل في هذه القرية على خبز يومي ؟

كان باب دكانة البدال مغلقا . قلت لنفسي : لا بد ان السبب هو ان اليوم عيد ، ولذلك أغلق الفرن أبوابه . ويغلق البدال دكانته. لكن لابد من الحصول على معلبات ، وخبز . طرقت باب بيته المجاور، مناديا اياه ، ولم يجبني احد في البيت . كان بابه ، كباب دكانته . مغلقا بالمفتاح ، على غير عادة سائر الابواب في البلدة . قلت لنفسي : ألجأ الى زملائي . وأبناء وطني . عدت منحدرا مع الطريق ، وانعطفت مع جدار المسجد ، ثم انعطفت يمنة الى بيت مواطني « علي » . ناديته، وطرقت بابه . ثم ناديته ، وطرقت بابه . أخيرا جذبت السقاطة ، ودخلت . صفقت منبها ، استأذنت مناديا : ياأهل البيت . ناديت على « علي » . واحمد ابنه ، وأم احمد . دخلت غرفة الضيافة ، السجادة مفروشة . والوسائد في انتظار الزائرين . وسائد للجلوس، واخرى للاتكاء عليها ، وثالثة مساند للظهر . ومصباح معلق على الحائط وجلباب « علي » المنزلي معلق في مسمار على الجدار . صفقت وناديت، ثم بدأت أدخل غرف البيت . هاهو سرير الزوجية ، وها هو ثوب منقوش لام احمد ، وقميصها الحريري الاحمر . لمسته برقة . أسندت خدي لحظة اليه ، تلفت ورائي خوفا من ان يراني احد . تركته . وقلت: أبحث عن خبز . لم اجد لقمة واحدة . هو مثلي يجلب خبزه من الفرن . غادرت البيت . وأغلقت الباب ورائي . عدت الى بيت جاري الدمنهوري الذي أكرهه من كل قلبي . في مثل هذه اللحظة . هو أقرب اليّ من اي احد آخر في البلدة . انه في البداية والنهاية من بلادي . اثار عليّ مفتش . ومدير المدرسة ، وقاضي البلدة ، وسخر مني ، لانني آنس الى غريمه « علي » ، اكثر مما آنس اليه . كلاهما يريد ان يثبت لاهل هذه البلدة انه منهم اكثر مما هو من بلده ، انه ، كما يقولون ، ملكي اكثر من الملك . ونحن في هذه القرية اربعة . انا مع

(1) من رسالة اليها

« علي » مدرس المجتمع ، و «فتحي» مدرس الرسم مع « محمد » مدرس العلوم ، وابن دمنهور ، ويسكنان معا في البيت المجاور لبيتي ، وكلاهما « علي » ، و « محمد » ، يعبدان المال ،ويتقربان الى الاهالي لكي يجددا اعارتهما في نهاية المدة التي ستأتي بعد عامين . عندما يطلب اهل القرية ذلك من المسؤولين . «علي» يطلب المال ليشتري ارضا ، ويرفع رأسه في قريته امام العمدة . و « محمد » يطلب المال ليبني من جديد عمارة قديمة تملكها زوجته في الاسكندرية . فكرت يوما ان اقتل هذا الدمنهوري العدواني ، وألقيه في البئر المجاور لبيته ، والذي شح ماؤه منذ سنين ، وظل باقيا . يهدد أي سائر في الليل ، بالسقوط فيه ، فتحي يعمل هنا ليعيش حتى يأتي اليه التعيين بالحكومة يوما .. اما انا . فعلى الاقل اعرف عن نفسي ، اكثر مما اعرف عنهم . وتلك هي مشكلة الذات والغير دائما . جئت لابني عش زواج . بل جئت هاربا من التعجيل به . وهاربا من عدم وجود عمل . وجئت لافطم في هذه القرية النائية واحلم ان اواصل مابدأته من محاولات للتعبير عن نفسي. أحلم بان اكون ، من هذه الواحة المضجرة كاتبا . أحاول ان أبدأ من جديد . أراجع نفسي في كل ماحدث ، وأتصور ماينبغي ان يحدث . لكنني لم أحقق شيئا أبدا ، سوى بضع عشرات نقدية ، دفعت ثمنها جوعا ، وكيلو جرامات من لحمي وشحمي ، وخواء روح ، وعجزا عن قراءة اكثر من صفحة ، وتمزيقا لكل سطور أكتبها . انني أزداد قهرا وتخلفا هنا . أنسحق كالوجوه الضامرة هنا ، والعيون المنطفئة هنا ، ونبدو لي اخبار العالم التي يحملها الراديو اخبار عالم آخر ليس عالمي . عالم لا أنتمي اليه . حتى اصبح من الصعب عليّ ان اتصور مثل تلاميذي ، كما استطعت من قبل : كيف أن صواريخ الانسان وأقماره ترتاد الفضاء حول الارض . بل كيف ان الارض كروية . وعاودني ، وانا اطرق باب جاري : محمد ، وفتحي ، ذات القلق المقبض والمرعب : ماذا اعمل . ومن أين أعيش بعد ان تنتهي ايامي في هذه البلاد ؟ وكيف احمل عبء اعالة انسان آخر معي ، حين اعود الى بلادي ؟

لم يلب ندائي احد . جذبت السقاطة ، ودفعت باب الساحة ، طرقت باب البيت ، لم يلب ندائي احد ، كان باب الدمنهوري مغلقا بالمفتاح . عدت ادراجي يائسا . بدأت أفكر أين تراهم قد ذهبوا جميعا. قلت لنفسي ،اذهب الى بيت مدير المدرسة ، اذا لم يكن قد سافر ليقضي العيد مع اهله في بلده ، سيكون موجودا ، وسأجلس معه ، وأسأله ، وأطلب طعاما ، حتى يأتي البدال ، والفران .

طرقت بابه كثيرا ، وفكرت ان افتحه اكثر من مرة . وابحث فيه عن طعام . سأجد خبزا على الاقل . فجيرانه يخبزون له ارغفة بين اسبوع وآخر . لم اجرؤ على فتح الباب . فكرت انني سأرتكب سرقة. وقد يأتي أحد . والنتيجة ، انهم سوف يقطعون يدي . او ربما يطردونني لكوني اجنبيا ، مجللا بعار السرقة . قلت لنفسي أذهب الى بيت الامير . أوه . كيف لم تخطر ببالي هذه الفكرة ، لا بد انهم جميعا هناك ،في يوم عيد ، يقدمون له مع تهنئة العيد فروض الطاعة، والولاء . استرحت للفكرة ، واصلحت قليلا من حال ملابسي . وبدأت اشق طريقي الى بيت الامير ، برغم سرعتي ويقيني الاحظ خلو الشارع في نهار عيد من الاولاد ، والنساء المحجبات . في بلادي في يوم العيد يملأ الناس الشوارع بثيابهم الجديدة ، والاولاد يلعبون بالبونات ، والاشياء المتفجرة ، والمراجيح ، وتخرج البنات الفقيرات في ثياب ملونة بحثا عن البهجة والمسرة في ضوء الشمس . ام ترى العيد هنا فيهذه القرية ، ايام حداد وبكاء ؟ تتابعت الابواب المغلقة امام عيني، يمنة ويسرة ، وقفت امام باب الامير . باب الامير مغلق باكثر من رتاج.طرقت الباب برقة ، ثم برفق ، ثم بشدة ، ثم بقبضة يدي ، ثم بكلتا كفي . أيها الامير أجبني . لا أحد لا يوجد حتى حارس هنا لشيء . الحارسان اللذان كانا يقفان امام الباب المفتوح لا وجود لهما . ملت الى السوق المجاورة . كانت خالية هي الاخرى . لا أحد . سقوف الخيش المظلة . الصناديق الخشبية . بقايا الاشياء من قشر البصل والثوم هي الموجودة في هذه السوق . لا أحد . تلفت حولي بذعر . هل رحل الناس من القرية ؟ اقشعر جسدي للفكرة . كيف ابقى وحدي في قرية خربة ؟ أخذت أعدو في الشوارع مناديا من أعرف من الناس في بيوتهم ؟ ثم ناديتهم جميعا : يا ناس . يا عالم . يا خلق . ياهوه . طرقت باب بيت القاضي وباب بيت امام المسجد . لا أحد . ذهبت الى المستوصف. الى بيت الطبيب . أعدو ، وأنادي . لا أحد . لا أحد . ماذا حدث للناس ؟ هل رحلوا بامر الملك . هل اذاع الراديو خبر زلزال سيحدث ؟ ام تراه قد حدث فهرب الناس ؟ لكن كل شيء في مكانه ما يزال ، عدا الناس . هل ماتوا ؟ فتلهم وباء مفاجيء ، غزو داهم ، وبقيت أنا وحدي حيا في هذه البلدة ؟

اقتحمت ابواب البدور ، واحدا بعد آخر . جست في كل الغرفة الطينية المرملة . لا اثر لميت . او قتيل . لا أثر لفزع او مقاومة . لا رائحة للموت . رائحة الفراغ فقط ، والخراب ، والآثار القديمة التي بقيت على حالها تقاوم الزمن . هل نمت كأهل الكهف مائة عام ، الف عام ، وحين استيقظت كانت الديار اطلالا ؟ « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » « ام على الديار ديار ليلى .. أقبل ذا الجدار وذا الجدار » . لاحظت القرية لاول مرة . بيوتها . غرفها . كبيوت الزيارة في مقابر المدن والقرى في مقابر بلادي علامات الشرف المنتصبة على الاركان الاربعة لكل دار كشواهد المقابر في بلادي . سقطت القرية امام عيني. شوارع متقاطعة بانتظام . وبيوت متراصة مصفوفة بتشابه ورتابة . وكلها من طابق واحد . وسوقان . على ارض غير مستوية . ارض صخرية مغطاة بالرمال ، تصعد هنا . وتهبط هناك . ومقبرة ، بجوار الفضاء المخصص لصلوات الاعياد والاستسقاء . لا يحد المقبرة أي سور لا ترشد اليها اية احجار ، لا يرتفع فوق قبورها اي حجر او اي شاهد ، ارض فضاء مستوية مثل ارض الصلوات ، تحكي بوجودها المسطح المستوى الحقيقة العارية الصماء للعدم ،بعد الموت ، للفناء بعد الرحيل ، الصفحة الاخيرة لكل حضارة ، وكل عصر ، لكل المقابروالآثار التي نحنو عليها ونفخر بها حينا من الزمان . لو مت أنا الآن لخمد كل شيء وهمد . ليس من طائر في السماء ، فلا أشجار هنا . ولا أقوات . وبئر الماء الوحيدة في القرية غائرة في قلب الارض الصخرية. تمنح المياه بمقدار ما يرفعها الموتور عند الحافة ، بأنبوبة من المطاط ، حتى يملأ تنك المياه الذي تحمله سيارة النقل ، وتمر به على بيوت القرية ، واحدا بعد آخر ، وعلى الكل ان يأخذ من الماء بحساب. فلا احد يدري متى تعود سيارة المياه . ولا متى تعطي البئر مزيدا من الماء .

تخايلت لعيني هذه القرية من ارتفاع شاهق . كذات الارتفاع الذي رأيت منه ، من الطائرة قرية اخرى ، نائية ، في هذه الصحراء ، شوارعها خطوط كرسم على الورق ، بيوتها مكعبات من الورق . ترتفع مع الارض حين يميل بي جناح الطائرة المجاور الى أسفل ،وتهبط مع الارض حين ينخفض بالطائرة الجناح الآخر . والانسان لا يرى وسط الخطوط والمكعبات . اودية الجبال وذراها هي التي ترى جيدا ، شاهدا على الازل والابد . ما الانسان الا ذرات نشطة . ما تلبث ان تستنفد قواها وتسقط هامدة ، والارض تدور ، تائهة في الفضاء . والقمر يدور ، والشمس ، والكواكب ، والنجوم . ما جدوى ان يوجد الانسان ان يصنع اي شيء، ان يحيا ، ان يفرح ، أن يحزن . ان يفكر، ان يتحدث ، ان يبكي ، ان يضحك. ما جدوى ان يصمت . ان يتألم ان يحلم . ان يتخيل آخرة ، ونار او جنة ، ها هو العدم وانت، ولا احد .

وجدتني أضحك . أضحك . أطلق لقواي المخبوءة العنان . ضحك في صراخ . وصراخ في ضحك . سمعت قهقرة معدتي . تطلب طعاما وشايا . دخلت بيت عبدالعزيز ، مديري ، ذي اللحية الخفيفة ،والذقن العريضة ، والعينين الشاكتين ابدا ، والشفتين المزمومتين ، المعبرتين عن صبر حزين ، وتصميم على مواصلة المسير ، دفعت بابه ، وأخذت ابحث عن طعام . عثرت على أرغفة وجبن وزيتون وبقايا عصيدة .أكلت على مهل حتى شبعت . وشربت حتى ارتويت . فكرت انه لو اتى الآن

ـ التتمة على الصفحة ١٤٢ ـ

لا أحـد

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٦ ـ

لن يلومني على شيء . سيقدر موقفي هو وامام المسجد والقاضي وكل الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر . لا تقطع يد في سرقة بسبب الجوع . هدد « عمر » بقطع يد السيد الفني الذي سرقه عبده لانه يجيعه . ازددت شعورا بالامن ، فصنعت لنفسي شايا وشربت حتى ارتويت ، وشعرت بالدوار . بحثت عن الراديو الترانزستور فماوجدته. ثقل رأسي بطنين الصمت والفراغ وكسل الكبد في هذه البلدة ، فنمت ساعة . وحين صحوت ، تذكرت ما حدث . خيل لي انني كنت أحلم. لكن ، ها أنا في بيت عبدالعزيز ولست في بيتي ، صاح لتوي من غفوة. وهذه هي بقايا الطعام . وبراد الشاي ، وقدح ما نزال به ثمالة يحيطها الذباب . كل ما حدث حقيقة اذن ، أين ذهبوا يا رب هذه البلاد . أنت يا من في السماء . وأنت يا سيد هذه الجزيرة . بكيت طويلا لمحنتي . وعدت خارجا من بيت عبدالعزيز . دون ان انزك ورائي اي أثر ، ترشد الى انني جئت هنا .من يدري . قد يبعث عبدالعزيز حيا، والبعث عقيدة الناس في هذه الجزيرة .

قلت لنفسي ان عليّ ان ارحل قبل الغروب ، سأقف على الطريق الذي يمر قريبا من القرية . وعسى ان تمر سيارة مسافرة ، فادمة من اي مكان تحملني الى اي مكان آخر ، أجد فيه بشرا . كنت أشكو من وطأة الناس بعيونهم وتقاليدهم فوق انفاسي . الآن اشكو من غيبتهم التي لا أعرف لها سببا . قلت لنفسي ، لا ينبغي ان اذهب ، قبل ان أعرف سر غيبة الناس المفاجئة . أظافري لم تطل . ولحيتي الحليقة بالامس ما تزال تنبت . فكرت ان اذهب الى ديرة قريبة ، الى صديقي محمد وكيل مكتب البريد . فيممت وجهي شطر ديرته . سرت خمسة كيلومترات ، عشرة آلاف خطوة عبر صحراء حجرية مليئة بالحصى ، والخطوط المنتظمة على الجانبين ،في انتظار ان يسقط المطر ، لتزرع اي شيء ، حتى ولو كان شوكا . مكتب البريد مغلق . وباب بيته المجاور مغلق ، والديرة كلها خاوية ، والطرقات على كل البيوت بلا صدى . تحررت من خناق غطرتي واسلمت نفسي للشمس ، للوهج، وللحرارة ، والعرق . توقفت عند البئر . حدقت في قاعة بحذر خشية السقوط. الماء بعيد وناء . لو فرغت المياه الباقية من بيتي ومن بيوت القرية . لو بقيت في هذه القرى الخربة ستكون كارثة . جدران البئر غير مبطنة ، أحجارها نائئة ، ومتباعدة . ولو نزلت عليها لاشرب لن اصعد أبدا ، حتى تأتي دلاء المارة ، واتعلق بأحدها كيوسف ،تراجعت مسرعا ، عائدا الى بيتي . مررت بأرض المقبرة ، وأرض الصلوات الخلوية . هنا ، او هناك في مكان ما ، وسط حفرة ، وجدوا زوجة طبيب من بلادي ملقاة كميتة ، في اغماءة طويلة ، والدم ينزف من بين فخذيها لم يزل. قالوا انها كانت سمراء ، وجذابة . في الليل دعا الطبيب بعضهم لزيارة مريض . خرج من هنا ،واقتحم البيت آخرون . وحملوها معهم الى الصحراء ، وعانقوها مرات ، واحدا بعد آخر . ترك الآخرون الطبيب حبيسا في بيت مهجور ينتظر مريضه . عثروا عليه يئن وسط قيوده . بحثوا عن الزوجة نهارا باكمله . حمل الطبيب زوجته ، وحقيبته ، وغادر القرية ، والبلاد كلها ، الى غير عودة .

ـ ٣ ـ

قلت لنفسي أودع القرية ، قبل ان اذهب . أكدت لنفسي ان عليّ ان أغادرها في أول سيارة تمر . الليل يحمل معه المخاوف والبدو، والعقارب ، والوساوس . دفعت باب بيتي . لاعد حقيبتي ، واطمئن على نقودي ، واترك خلفي كل شيء آخر لا تسعه حقيبتي الوحيدة ، حين دفعت الباب سقط الخاطر في رأسي فجأة على غير تقدير او تأمل . لا أحد . اذن أنا حر . حر ، عار من الماضي والمستقبل . حر كما لا يحلم أحد بالحرية . لا أحد . فليمت كل شيء .ولاعد قبل الرحيل كانسان الغابة الاول . استحم في الشمس ، اعانق الفراغ . اصرخ . اضحك . العن كل شيء . اودع هذه الديار في تجربة لن تتكرر أبدا . طوحت بالفطرة في ساحة البيت .نزعت ثيابي عن جلدي ، وقفت عاريا . درت حول نفسي . أقعيت . جلست . تمددت ، تدحرجت على ارض الساحة. غمرتني الرمال ، ونفذت حرارة الشمس الى أعماق جلدي . خرجت الى الشارع حرا . تلفت حولي . لا أحد . لا أحد . لو ظهر احد فجاة .لن اتراجع . سأعريه معي . لو ظهر اثنان . سأهرب . وانكر، انني كنت أنا. الآن حانت لحظة الوداع للديار ، للأحد . معها سأودع كل عقائدي وافكاري ، سأبدأ من جديد عاريا . عاريا . هكذا بدأ آدم . وهكذا بدأت حواء . وكل ليلة يكرر آدم وحواء نفس البداية ، لكنهما مع النهار يخفيان عريهما . عدوت في القرية فرحا ، ارقص ، وازعق . حتى سئمت . لا مرآة ارى فيها نفسي . لذلك وحده سئمت . بدا العري لي غير مستغرب ، لا يثير دهشة ، بدت حريتي بلا موضوع . حرية مجوفة ، خاوية ، كبيوت هذه القرية . لكن كل شيء بدا يكتسب معنى آخر . المكان يثير الماضي ، يثير الذكرى . لكل مكان تاريخ، أنا مكان لي تاريخ . مكان متحرك ، والتاريخ هو زمني ، لذلك انا حر . امنح الحياة للاشياء ، للاماكن من حولي . دخلت المدرسة ، تسلقت سورها. مكتب المدير مغلق ، صحف الحائط معلقة . شدني أحد عناوينها :« جحا قال لي » . دفعت باب فصل دراسي . هنا وقف مفتشي بعد قدومي بأيام ، أخذمني الدرس وأخذ يشرح، معلما اياي قبل تلاميذي ، هنا كان يجلس الولد الذي لا اذكر اسمه . قصير ، وقميء ، وقبيح . ينز الصديد من عينيه . اعتلاه امام المسجد يوما بعد صلاة العصر ،في ساحة المسجد ، بجوار المحراب . ضبطه الناس متلبسا باللواط . لكنه ظل يصلي بالناس . في الجمعة التالية كان يخطب ايضا ، على هذين المقعدين، ضبطت بكرا وخليلا . كان وجهاهما يحمران ويصفران، يتلونان بسرعة غريبة . كنت مشغولا عنهما بشرح آيات عن الزنا ، تركت الطباشير تسقط من يديّ وانحنيت بسرعة لاستردها . ورأيت في لمحة ما حدث ، كانا عاريين من أسفل ، وبدكل منهما بين ساقي الآخر . ضحك كل الفصل ، كانوا يدركون ما يحدث ، ويتقامزون في سرور صامت ، ثرت ، طلبت منهما الوقوف رفضا . طلبت خروجهما من الفصل رفضا . خرجت انا ، ذهبت الى عبدالعزيز محتجا ، كتبت مذكرة عنيفة مطالبا بفصلهما ، قال لي : لا تؤذ نفسك ، بعيشون في كبت ،ينفجون مبكرا ، والزوجات غاليات المهور ، لا بد ان يحدث ما تراه . لذلك يخال الرجل الرجل . يحبان بعضهما فما دخلك أنت . ضحكت كأبله داخل الفصل ، حياة الغابة والصحراء واحدة . وانا الآن عار، في قلب تجربة فريدة وقذرة .

غادرت المدرسة عائدا الى الشارع . هنا،في هذا المنعطف . التقيت بالحضارمة الثلاثة ، كان أحمد بن علي يمسك بيدي ،في طريقنا الى البدال . انحنى احدهم بوجه يفوح بهجة ونشوة وعرقا ، وداعب خد احمد الذي انكمش خائفا رفعت يدي وصفعته . فانسحبوا دون احتجاج. اختفى احمد ذات يوم من هذا البيت . كان يلعب امامه . أغروه بالحلوى ، فذهب معهم الى بيتهم المجاور لبيت ابيه . اوثقوه بالحبال ، وكموا فمه . ظللنا مع الكل نبحث عنه نهارا وليلة ، في الصباح التالي عاد احمد الى بيت أبيه . كان في السابعة من العمر . انزوى في ركن غرفة . وظل ثلاثة ايام جالسا ، ينام ويستيقظ وهو في مكانه مسندا رأسه الى ركبتيه . لا يأكل ولا يشرب ولا يتكلم . ينظر في رعب ، ولا يجيب على سؤال . حين نلح عليه يبكي . اخيرا اعترف بما حدث ، جلد القاضي الثلاثة . لم يطردهم من البلدة ، هددهم بالطرد فقط . عليهم ان يصنعوا الخبز كل يوم للناس . لا يستطيع احدهم ان يخرج بدون ان يأذن له القاضي ، والقاضي لن يأذن لاحدهم حتى يأتي بديل له . الامير أيضا لا يرى غير ذلك الرأي .

سرت في شارع البدال ، الشارع الوحيد المؤدي الى القرية . ذات يوم رأيتها ، كان الشارع خاليا في الظهيرة من أي أحد . رأيتها تظهر

قادمة من المنحدر في آخر الشارع ، مسربلة برداء أسود . رأيت عينيها تبرقان من بعد . عبر ثقبين في شال الرأس . حين أوشكنا ان نتواجه، حين أوشكت أن أحيد عن اتجاهها العامد نحوي ، رفعت شال رأسها. وفتحت عباءتها السوداء على الجانبين . رأيت في تلك اللحظة الخاطفة ما لا عين رأت ، ولا خطر على قلب بشر ، في هذه القرية الملفعة بالحجاب والتقاليد . وجه بدري مشرب بحمرة وعينان حوراوان ، وعود كغصن البان ، وشفتان تبتسمان يعلو « روج » فاقع الحمرة ، وثياب ملونة . في موديل باريس ، قادم لتوه من الرياض . وملات رائحة « الشانيل » انفي . وحادت بسرعة عن طريقي ،قبل ان يراها أحد . أين هي الآن .من المؤكد انها في واحد من بيوت هذا الشارع ، في آخر الشارع حيث قدمت . ربما كانت ابنة الامير ، او تعمل في بيته ، او زوجة له ،لم ارها بعد ذلك ابدا . ظللت اياما ، أحدق في كل محجبة عسى،ان تكون هي، لكن السواد الشامل لا يسفر عن شيء وراءه .

في المستوصف ، كنا نجلس مع الطبيب الحضرمي ، دخل الرجال ، وجاء دور النساء ، اردنا ان نخرج ،فأصر على بقائنا ، لنرى . جاءت واحدة . شكت انها مريضة . طلب ان تدخل معه الحجرة الاخرى ليكشف عليها ، رفضت . وصفت فقط ما تشكو منه . قدر الطبيب مرضها . لكنه طلب ان يرى عينيها ،رفضت . نهض الطبيب واعد حقنة، كشفت ، امامنا ،عن عجيزتها ، فغرس الابرة ، وتأوهت كأنها في فراش، ثم ضحكت ، وذهبت مسرعة . جاءت أخرى . شكت ان زوجها مريض . طلب الطبيب ان ترسله . قالت انه لن يأتي . انه مريض فقط . وهي تعرف مرضه ، سألها عن مرضه ، فقالت انه لا يضاجعها كما كان . سألها ، فقالت : هكذا ، سألها : كيف ؟ الم يرقد معك امس ،قالت :ثلاث مرات ، ضحكنا. سبتنا قالت اننا لسنا رجالا ، سألها : كيف كان حاله معك من قبل ؟ قالت : عشر مرات . سألها : في الليلة ؟ هزت رأسها موافقة ، قال : كم مضى على زواجكما ؟ قالت : خمس عشرة سنة . سألها : هل هو متزوج من غيرك ؟ قالت : بثلاث سواي، قال لها :ارسليه اذن ، لا حق له . انه مقصر في حقك . التفتت نحونا وقالت : قل لهم، اعطني دواءه . انه يخجل ان يأتي اليك ، اعطاها الطبيب علبة كبسولات قائلا : الان . لا عذر لديه . واطعميه قماما بالشطة . ضحكت سعيدة ، ووثبت ، وهي تخرج .

سمعت نافذة ، رأيتها من قبل مفتوحة ، تغلق ، نسمة هواءتهب. أكدت لنفسي أنها هي التي اغلقت النافذة ، تمنيت ان تكون المرأة الحوراء العينين هي التي اغلقتها ، وتمنيت ان تكون وحدها حواء هذه القرية الخالية . الاحتمال ما يزال قائما في نفسي، ان يكون خلف هذه النافذة أحد ، يحدق من ثقب ما ، يراني عاريا ، ويفتح فمه في دهشة لما يرى ، اسرعت اعدو عائدا الى بيتي ، نفضت التراب، وجففت العرق ، ومسحت جلدي بثوب متسخ . وارتديت ملابسي ، وقت العصر يقترب . عدت ادخل اول بيت يقابلني ، واكلت ، وشربت ، وصنعت شايا لنفسي ، ثم عدت لاحمل حقيبتي، مغادرا البيت الى طريق المسافرين، في انتظار ان تمر سيارة ، شرقا كان اتجاهها او غربا .

ـ ٤ ـ

في ظل دكانة وحيدة ، مغلقة ، لاصلاح السيارات المارة ، جلست وحيدا ، بجواري حقيبتي . بدأت أفكر من جديد ، باحثا عن حقيقة ما حدث ، كيف هجر القرية اهلها ، هكذا مرة واحدة ، ناقشت كل الاحتمالات التي ناقشتها من قبل ، ولم اعثر على تقدير واحد ، شبه مؤكد . ليس معي جواز سفري . تحتفظ به مديرية التعليم على بعدمائة وخمسين كيلومترا . قبيل صحراء النفود . وكان ينبغي ان يكون الجواز معي ، ومعه ورقتان من الامير بدفعي للزكاة ، مع انهم يحسمونها اول كل شهر من مرتبي ، وباتني غير مدين لاحد في القرية. وقد رددت كل ما لديّ من عهدة للمدرسة . فكرت ان ذلك غير مهم الآن . فالقرية خالية . وعليّ ان الجأ لاول قاض او امير في اية مدينة ، خطر لي ان الجزيرة ، مدنها وقراها ، ربما تكون خالية الآن بدورها من الناس. لكن ، مستحيل ، كيف يمكن ان يحدث ذلك في ليلة ، ولاي سبب، البحر يحيط بهذه الجزيرة التي تشبه وحدها قارة ، من ثلاث جهات. اية مواصلات خرافية يمكن ان تحمل الجميع في ليلة واحدة ، بل في بضع ساعات ، تجشأت مرارا من كثرة ما شربت من الشاي ، وقاومت « الزغطة » بحبس انفاسي حتى اختفت ، ولاحت لي ساحة مسجد القرية . نصفها مسقوف يرتكز على اعمدة وعقود لاداء الصلوات في الشتاء والنصف الآخر مفتوح على السماء ، لاداء الصلوات في الصيف ، وعلى مرتفع يقف امام المسجد يتلو خطبته المسجوعة ،في ذات الموعد، من كل شهر ،من كل عام ، من كتاب قديم ، ليس بينها خطبة لم اسمعها في قريتي ،في بلادي ، لكن صوته يختلف عن صوت امام المسجد في قريتي . امام هذه القرية ، يرتل خطبته بطريقة كنسية ، لا ينقصه معها . سوى مبخرة تتأرجح في يده . لا ينقص كلماته سوى ان يردد بين حين وآخر : يا آب ، نفس المشهد الذي رأته عيناي يوما في كنيسة الهد ، حيث يتشاجر القسس على عدد البلاط المسموح بكنسه لمثلي كل كنيسة ، شجارا وصل مرة الى حد اطلاق الرصاص ، في سماء بيت لحم .

طال انتظاري لمقدم سيارة ، وبدأت الشمس تنحدر في الافق الغربي . وأخذت افكر في قلق ،كيف يكون حالي لو بت وحدي الليلة. لو مرت الايام. ولم تأت اية سيارة ؟ وقررت ان عليّ ان اعيش وحدي في هذه القرية، حتى أعجز عن ذلك يوما، سيكون عليّ ان اعجن الدقيق في الفرن ، واخبزه ، وانضجه ، وان اكسر باب البدال ، واعيش على معلبانه وان اجد دلوا او حبلا انتح به الماء من البئر التي ستمتلىء حتما ، لقلة الآخذين منها ، وقبل ان تغرب الشمس ، نهضت عائدا مع حقيبتي الى البيت . وجلست لحظة افكر في ان عليّ ان اجلب طعاما اخزنه معي . كل البيوت ملكي الآن ، ولا لوم عليّ من أحد . واضات مصباحي قبل ان اغادر البيت .

* * *

كانت الليلة خريفية دافئة . جلست على مقعد في ردهة البيت، مسندا ظهري الى عمود ، والمصباح مضاء فوق رأسي ، معلق على مسمار. وفي يدي كتاب احاول ان اقطع سطوره . هوام الليل تطير من حولي . الصراصير هنا لها اجنحة . في نفسي خوف من العقرب . كاد ان يلدغني ذات ليلة ونحن ساهرون مع صديقنا وكيل مكتب البريد في الديرة القريبة . رآه محمد ، صديقي اللدود ، يزحف في اتجاه يدي . كانت في يده بطارية . فجأة رأيته يضرب الارض بشدة ، بجانب كفي الموضوع على الارض ، ويدي الاخرى مشغولة باوراق الكونكان . اعتبرتها منه بادرة عدائية . أحس ذلك في عينيّ « ضحك بسخرية ، وأراني زجاج البطارية مكسرا ، وقد لصقت به العقرب منسحقة .

سمعت صوتها ينادي . صوت امرأة : ـ استاذ .

اقشعر جلد رأسي ، وارتعدت . حسبت انني سأجن ، او انني اسمع واحدة من جنيات الصحراء التي طالما انكرتها . امسكت انفاسي.

صدر حديثا

ملاحظات على الموسوعة العربية الميسرة

تأليف

الدكتور علي جواد الطاهر

مطبعة الارشاد ـ بغداد

ونهضت متربصا ، انظر الى الباب ، طرقت الباب ، ونادت : استاذ .

ترددت ، جئت بسكين حملتها ، اخفيتها وراء ظهري، وفتحت الباب بيدي الاخرى على اتساعه دفعة واحدة . سقط الضوء على وجهها ، لانني انحرفت عن طريقه،ذات الوجه الذي رأيته ساخرا ، ومبتسما ،ومتحديا، شفتاها تقطران اغراء . هتفت :ـ أنت ؟.. تفضلي

قالت : ـ وحدك .

ـ نعم

قالت : ـ طيب . انتظر لحظة

ذهبت خارج ساحة البيت ، وعادت تحمل صينية طعام مغطاة . قالت : ـ رأيتك وحدك . فجئت .

وقالت : ـ ظللت أتبعك طول النهار ، رأيتك ، وأنت ..

وزمت شفتيها كاتمة الضحك ، والسعادة تتألق في عينيها .

احمر وجهي خجلا . لقد رأتني عاريا كما ولدتني أمي . قلت بغضب ، كأنها المسئولة عما حدث للقرية : ـ أين ذهبوا ؟

ضحكت ، وقالت : ـ مع زملائك .

ـ أين ؟

ـ في جبلة . يقضون ايام العيد

ـ أوه .

قالت :

ـ في عيد الفطر وحده يخرجون . بلا حجاب . الرجال والنساء . يغنون ويرقصون . يتعرف بعضهم الى بعض . وفي النهاية . اقسام الافراح عند العودة .

ـ وأنت ؟

ـ أنا ، انا وحيدة ولم اذهب

ـ لم ؟

ـ في ليلة زفافي ، كان كبيرا في السن ، عقدت تكة سروالي ، دعوته ليفكها ، فشلت يداه ، فأخذ يجرب أسنانه . ضغطت على عنقه بفخذي ، وخنقته .

ـ والقاضي ؟

ـ ضحك وأنا اروي له ذلك . وادعيت امام الناس ، انه كان يريد قتلي . فخنقته بيدي .

ـ والقاضي ؟ سكت ؟

ـ نعم ، بعد أن أخذ الثمن . كان قاضيا شابا ، لكنه رفض ان يتزوجني .

ـ والآن ؟

ـ لست متزوجة

ـ لم ؟

ـ أعيش هكذا ، النساء افضل في هذه المسألة . والرجال يخافون مني. عرفوا القصة بطريقة ما .

ـ لم جئت اذن ؟

ـ اجرب . انني وحيدة ، ولن يعودوا قبل ايام ثلاثة .

ـ انا لا اخاف منك .

ضحكت فجأة . انصتت. سمعنا موتور سيارة قادمة . نهضت ، واطفأت النور . واغلقت باب الساحة وباب البيت .قالت :

ـ احدهم قادم ، لا ترد ابدا على ندائهم .

توقفت السيارة امام الباب : طرق القادم الباب ،ونادى :

ـ استاذ ، استاذ

لزمنا الصمت . فتح باب الساحة . اسرعت تدخل تحت السرير قائلة : ـ لو دخل اليك هنا ،ادع النوم ، ولا تذهب .

دق باب البيت . نادى :

لكنه لم يدخل . انصرف عائدا . سمعته يقول لرفيقه :

ـ مؤكد انه ركب سيارة، وذهب الى الرياض .

ـ يبدو ، لم أره يأتي الى المسجد امس .

وانصرفا عائدين . وخرجت من تحت السرير . واضأنا المصباح، وسددنا ثقوب النافذة والباب . فليس هناك أحد . لا أحد .

القاهرة

سليمان فياض

صدر حديثا

العمل الفدائي

انه ارشاد تطبيقي ميسر لمزاولة حرب المقاومة الشعبية والعمل الفدائي على أرض يحتلها العدو ، ويرفض أهلوها الاستسلام . فيه نظرة تاريخية وتقييم ممتع للعمل الفدائي: أصوله، وطرائقه،والاساليب الاجدى فيالدعوة اليه وممارسته والظفر بعد أدائه . وهذا ما نحن في الوقت الحاضر في أمس الحاجة اليه . فالمؤلف رجل خبر حرب المقاومة الثورية والانتفاض على مختلف أعداء الشعب في أميركا اللاتينية والحرب الاهلية الاسبانية ، وهو يضع جميع خبراته في متناول اليد لكل من يود الانتفاع بتجارب السابقين . كما ان الترجمة سهلة متبسطة لا يعتريها التباس .

انه كتاب كل مواطن ، الفدائي للمناقشة والتطبيق ، والمواطن العادي للتأهب كي يكون فدائيا يوما ما . لهذا نجده يشرح أفضل السبل لنصب الكمائن ولغم العربات المجنزرة ونسف مستودعات الذخيرة والتخلص من أفراد دوريات العدو . وفيه كيف يعيش الفدائي ورجل المقاومة ، وماذا يلبس في كل فصل ، وكيف يسلك مع الغير .

انه ثروة جاهزة للاخذ والتطبيق .

الناشر : دار الآداب بالاشتراك مع دار العلم للملايين

الثمن ٢٠٠ ق.ل.